مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠٠٦/٥

الأحد ٢٩ كانون الثاني

تذكار نقل بقايا الشهيد في الكهنة إغناطيوس المتوشح بالله

اللحن السابع

إنجيل السَحَر العاشر

الرسالة

(١ تيمو ٤:٩-١٥)

يا إخوةُ صادقةٌ هي الكلمةُ وجديرةٌ بكلِّ قَبول* فإنَّا لهذا نتعبُ ونُعيَّرُ لأنَّا ألقينا رجاءَنا على اللهِ الحيِّ الذي هو مخلِّصُ الناسِ أجمعين ولا سِيَّما المؤمنين* فوصِّ بهذا وعلِّمْ به* لا يستَهِنْ أحدٌ بفتوَّتِك بل كُنْ مثالاً للمؤمنينَ في الكلامِ والتصرُّفِ والمحبَّةِ والإيمانِ والعفاف* واظِبْ على القراءَةِ إلى حينِ قدومي وعلى الوعظِ والتعليم* ولا تُهمِلِ الموهِبَةَ التي فيكَ التي أُوتيتَها بنبوَّةٍ بوضعِ أيدي الكهنة* تأمَّلْ في ذلك وكُنْ عليهِ عاكفاً ليكونَ تقدُّمُكَ ظاهراً في كلِّ شيءٍ.

الإنجيل

(لوقا ١٩:١-١٠)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ مجتازٌ في أريحا إذا برجُلٍ اسمُهُ زكَّا كان رئيساً علَى العشَّارين

دخول السيد إلى الهيكل

«إن الراكب على الشاروبيم والمسبَّح من السارافيم يُقدَّم اليوم بحسب الشريعة إلى الهيكل الإلهي فيتكئ على ذراعي الشيخ ويتقبَّل من يوسف قرابين لائقة بالله كزوجي يمام، الكنيسة الطاهرة والشعب المنتخب جديداً من الأمم، وفرخي حمام بما انه رئيس العهدين القديم والجديد. أما سمعان فلمَّا تقبَّل غاية الوحي الذي أوحي إليه بارك البتول مريم والدة الإله، وسبق فأخبر مشيراً عن آلام المولود منها، فاستمدَّ منه العتق قائلاً: الآن تطلقني أيها السيد كما سبقت فوعدتني لأني قد أبصرتك أيها النور الذي قبل الأزل والرب المخلِّص الشعب المسيحي» (من غروب العيد).

مع عيد دخول السيد إلى الهيكل في الثاني من شباط تصل دورة عيدَي الميلاد والظهور الإلهي الليتورجية إلى ختامها. بعد أربعين يوماً من ميلاد الرب يسوع بالجسد نعيِّد لأمرين، أولاً لتقديم يسوع إلى الهيكل تتميماً للشريعة التي أعطاها الله قديماً لموسى: «قدِّس لي كُلَّ بكرٍ، كُلَّ فاتحِ رحمٍ من بنِي إسرائيلَ منَ الناسِ ومن البهائم. إنه لي... ويكون متى أدخَلَكَ الرَّبُّ أرضَ الكنعانيينَ كما حَلَفَ لكَ ولآبائِكَ وأعطاكَ إيَّاها، أنَّكَ تُقدِّمُ للرَّبِّ كُلَّ فاتِحِ رحمٍ... الذكور للرَّبِّ» (خر ١٣:١-١٦). ثانياً، لتقديم الذبيحة التي أوصى الله موسى أن يتممها، وهي أن تأتي المرأة بعد أربعين يوماً من ولادتها ذكراً لتقديم ذبيحة تطهير (لاو١٢). وكان قد سبق الميلاد صومٌ يمتد لأربعين يوماً أيضاً.

تركِّز تراتيل هذا العيد على ان ما قام به يوسف ومريم في هذا اليوم كان بحسب ناموس الرب. الرب يخضع للشريعة التي أعطاها لموسى قديماً كما شاهدناه يخضع لناموس الختان بعد ثمانية أيام من ميلاده. كان على الرب أن يقوم بكل شيء وفقاً لناموس الله المعطى لموسى لكي يُتمّ هذا الناموس ويحققه بكماله. القديس غريغوريوس بالاماس يوضح أهميَّة خضوع الرب للناموس فيقول: «جعل في ذلك كله طبيعتنا مطيعة للآب، وشفى معصيتنا محوِّلاً اللعنة إلى بركة. أي كما ان طبيعتنا كلها كانت في آدم هكذا صارت أيضاً في المسيح. وكما اننا

وكـان غـنـيًّـا* وكـان يلتمسُ أن يرى يسوعَ مَن هو فلم يكنْ يستطيعُ من الجمعِ لأنَّهُ كان قصيرَ القامة* فتقدَّمَ مسرعاً وصعِدَ إلى جمَّيزةٍ لينظُرَهُ لأنَّه كان مُزمِعاً أن يجتازَ بها* فلمَّا انتهى يسوعُ إلى الموضعِ رفعَ طَرْفَهُ فرآهُ فقال لهُ يا زكّا أسرِعِ انزلْ فاليومَ ينبغي لي أن أمكُثَ في بيتك* فأسرعَ ونزلَ وقبِلَهُ فرحاً* فلمَّا رأى الجميعُ ذلك تذمَّروا قائلين إنَّهُ دخلَ ليحُلَّ عند رجلٍ خاطئٍ* فوقف زكّا وقالَ ليسوعَ هاءنذا يا ربُّ أُعطي المساكينَ نِصْفَ أموالي. وإن كنتُ قد غَبَنْتُ أحداً في شيءٍ أَرُدُّ أربعةَ أضعافٍ* فقال له يسوعُ اليومَ قد حصلَ الخلاصُ لهذا البيتِ لأنَّهُ هو أيضاً ابنُ إبرهيم* لأنَّ ابنَ البشرِ إنَّما أتى ليطلُبَ ويُخلِّصَ ما قد هلكَ.

تأمل

أيها الأحبّاء إن الذين يشتهون الصالحات لا يختلفون عن العطشى وبقدر ما لا يحظون بما يطلبونه يزداد عطشهم إليه. في الليل يتخيّلون كالعطشى الينابيع التي يتوقون إليها وعند طلوع النهار ينتقلون من مكان إلى آخر وعيونهم حائرة تطلب ما يشتهيه قلبهم.

اتخذنا وجودَنا عن طريق آدم الأرضي واتجهنا إلى الأرض ورُمينا في الجحيم، هكذا عن طريق آدم السماوي، حسب الرسول، دُعينا من جديد إلى السماء واستحققنا المجد والنعمة التي هناك. الآن نشترك بهذه النعمة سرياً لأنه يقول «حياتكم مستترة مع المسيح في اللهِ. متى أُظهِرَ المسيحُ حياتُنا فحينئذٍ تُظهرون أنتم كلّكم أيضاً معه في المجد» (كو ٣:٣). «أنتم كلكم» أي الذين أصبحوا أبناء بحسب المسيح عن طريق الروح وأظهروا أنفسهم أولاده الروحيين عن طريق الأعمال».

كلمة «الدخول» باليونانية تعني «لقاء». لذا فإن عيد الدخول هو عيد لقاء الرب مع الهيكل، مع سمعان الشيخ وحنة النبيَّة. إنه عيد لقاء العهدين القديم والجديد. لقد انتهى العهد القديم وبدأ العهد الجديد. لقد أتمَّ العهد القديم مهمَّة تأمين ولادة المسيَّا التي أوكلت إليه، وهو يسوع الذي من سلالة إبرهيم، وتحققت الوعود التي أُعطيت لإبرهيم في بداية دعوته من الله. مجد إسرائيل القديم أشرق في يسوع المسيح المُعتبر في العالم «نور إعلان للأمم» وليس للشعب العبراني فقط. في يسوع أُنير العالم وخلُص. لقد أتى العهد الجديد وتأسس شعب الله الجديد على الأرض. لقد تباركت عائلات الأرضِ كلها بنسل إبرهيم. العهد القديم يُسلِّم الأمانة للعهد الجديد. سمعان الشيخ وحنَّة النبيَّة الشيخة أيضاً اللذان يلاقيان يسوع على مدخل الهيكل يمثلان بشيخوختهما واقترابهما من الموت، زوال العادات والطقوس القديمة مع الشرائع التي لم تكن إلاّ «ظِلَّ الخيراتِ العتيدةِ لا نفسُ صورةِ الأشياءِ» (عبر ١:١٠)، «ظلّ الأمور العتيدة» (كو ١٧:٢).

لقد وعى الكاهن الشيخ سمعان، وكما أوصي إليه بالروح، ان الطفل الذي يحمله بين ذراعيه هو مخلّص العالم كله. لقد تجسد المسيح لا ليُخلِّص إبرهيم ونسله فقط، بل آدم أيضاً، جد إبرهيم ونسله. لذا لما شاهد الطفل قال «الآن تُطلِقُ عبدَكَ يا سيِّدُ حسبَ قولِكَ بسلام، لأنَّ عينيَّ قد أبصرتا خلاصكَ الذي أعددته قدَّام وجه جميعِ الشعوبِ نورَ إعلانٍ للأممِ ومجداً لشعبكَ إسرائيلَ» (لو ٢٩:٢-٣٢). مجد إسرائيل ان من نسل إبرهيم أتى مخلص العالم أجمع. لكن المهم ان الخلاص هو لكل من آمن بيسوع ابناً لله. كاتب صلوات عيد الدخول يقول ان الشيخ «لما حمل الحياة استمد عتقاً من الحياة قائلاً: الآن أطلقني أيها السيد لكي أخبر آدم أني أبصرت طفلاً، الإله غير المستحيل الذي قبل الأزل والمخلِّص العالم» (من صلاة الغروب).

الأقمار الثلاثة

تروي الكتب الليتورجيّة أنّ خلافاً نشب في القسطنطينية، قبيل العام ١١٠٠، حول من هو الأعظم بين الآباء الثلاثة، باسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الذهبي الفم. وقد استدعى السعي إلى فضّ الخلاف، على نحو مقبول، استنباط عيد الأقمار الثلاثة (٣٠ كانون الثاني) الذي تعيِّد فيه الكنيسة لهؤلاء القديسين الثلاثة مجتمعين، وذلك دلالةً على المساواة في الكرامة بينهم وعلى أنّ الكنيسة تُبنى بسيرة كلٍّ منهم وتعليمه على حدّ سواء.

من المعروف أنّ الأقمار الثلاثة عاشوا كلّهم في القرن الرابع، وهو القرن الذي اتّسم بحدّة الخلافات اللاهوتيّة وظهور الهرطقة

وكمثل المسافرين ساعة الحرّ الشديد الذين يعبرون الأرض الجافة وبداعي العطش يتطلعون إلى ينابيع المياه متسلّقين الجبال في كثير من الأحيان إلى أن يجدوا هناك عين ماء، وما أن يجدوها من بعيد حتى يفرحوا ويواصلوا سعيهم مسرعين إليها. ومن ثم يصلون إلى النبع ويروون عطشهم.

هكذا هو الحال مع محبّي المسيح. في النهار يلتمسون المسيح مشتهاهم عن طريق الأعمال الصالحة وفي الليل يكون بقربهم عن طريق الصلاة، وخلال نومهم يشاهدونه يسير معهم في الحلم. عندما يرونه في الحلم من بعيد يبتهجون ويتهلّلون كالعطشى الذين يجدون ينابيع المياه المشتهاة. وعندما يستيقظون من النوم يرغبون في الرقاد من جديد لكي يحصلوا مرّة أخرى على الرؤيا نفسها.

هكذا هو الحال أيضاً مع زكا الذي قرأنا عنه في إنجيل اليوم. انظروا إليه كيف يركض والشوق الإلهي يُلهبه. يصعد على الشجرة ويتطلع إلى يسوع حتى يرى النبعَ المحيي. وعندما يرى زكا الرب تريح الرؤية نفسه وتندّي قلبه المشتاق.

لم يستطع أن يراه بسبب الآريوسيّة التي أنكرت أن يكون ابن الله مساوياً لأبيه في الطبيعة والكرامة، وشهد انعقاد المجمعين المسكونيّين الأول (نيقية، ٣٢٥) والثاني (القسطنطينية، ٣٨١). لكنّ هذا القرن امتاز أيضاً بازدهار الفكر اللاهوتيّ على يد آباء عظام، ما جعل بعضهم يعتبره العصر الذهبيّ للكنيسة الشرقيّة. ولئن كان الأقمار الثلاثة ينتمون إلى هذه الحقبة الزمنية ذاتها ويشتهرون بأنّهم وضعوا مداميك الفكر اللاهوتي على غير صعيد، إلاّ أنّ هذا لا يستتبع عدم وجود اختلافات لا يُستهان بها في ما بينهم على مستوى السيرة ونمط الرعاية والتعليم، ولعلّها نابعة لا من الاختلاف الطبيعي في الشخصية والخبرة والاهتمامات فحسب، بل أيضاً من الظروف الكنسيّة والحياتيّة التي مارس كلّ منهم فيها خدمته للمسيح يسوع.

لعلّ القديس باسيليوس الكبير، رئيس أساقفة قيصريّة كبادوكية، يمثّل شيئاً من نموذج وسطيّ بين التضلّع اللاهوتيّ، الذي يشكّل غريغوريوس أبرز قممه، وبين الحسّ الرعائيّ الفذّ الذي امتاز به الذهبيّ الفم. فاللافت أنّ معظم ما خلّفه لنا الذهبي الفم من آثار يندرج في إطار عظات تفسيريّة يستقرئ فيها معظم كتب العهد الجديد، وذلك انسجاماً مع الخطّ الأنطاكي المهتم بالتفسير، فضلاً عن العديد من المؤلّفات ذات الطابع العملاني والعظات التي يسعى عبرها إلى تقويم اعوجاجات البشر الخلقيّة بعيداً عن أجواء التفكير المعمّق في شؤون العقيدة. أمّا غريغوريوس أسقف نازيانز فلقد اشتُهر أكثر ما اشتُهر بعظاته اللاهوتية الخمس التي ألقاها في كنيسة القيامة في القسطنطينية واضعاً فيها أسس التكلّم باللاهوت ومبرهناً تساوي الكلمة والروح القدس مع الآب في الألوهة، حتى أنّ الكنيسة أطلقت عليه لقب «اللاهوتي» على غرار الرسول يوحنا، كاتب الإنجيل الرابع. هذا، طبعاً، لا يعني إحجام غريغوريوس عن خوض غمار الرعاية، ولا يعني بالطبع عزوف الذهبي الفم عن التطرّق إلى شؤون العقيدة وشجونها. فالأول أبلى بلاءً حسناً عندما استعان به أبوه أسقف نازيانز في بعض المهمّات الرعائية قبل أن يستلم بنفسه شؤون الأسقفية لردح من الزمن. والثاني تطرّق في كتاباته إلى بعض الهرطقات الرائجة في عصره فحلّلها وفنّدها ودحضها بحجج من الكتاب المقدّس مبيّناً بطلانها. لكن يبقى الطابع الغالب على كتابات غريغوريوس هو الشأن العقائدي الصرف، وذلك إمعاناً في التصدي لخطر الهرطقة الآريوسية الذي كان يعصف بالكنيسة في زمنه. أمّا الهاجس المسيطر على معظم مؤلّفات الذهبي الفم فمصدره انصراف هذا القديس، معظم حياته، إلى السهر على المؤمنين من حوله ودعوتهم إلى السلوك سلوكاً مسيحياً لا غشّ فيه ضمن مجتمع مدينّي، في أنطاكية ثم في القسطنطينية، طغى عليه الغنى الفاحش وحبّ اللهو والانصراف إلى الملذّات. وفيما يُعتبر القديس غريغوريوس شيخ المتكلّمين باللاهوت وواضع أسس التعبير عن عقيدة الثالوث، يُحتسب القديس الذهبيّ الفم أمير مفسّري الكنيسة وأغزرهم على الإطلاق.

ذكرنا أنّ بعضاً من عبقرية القديس باسيليوس الكبير يكمن في أنّه يؤالف بين النموذجين اللذين تطرّقنا إليهما أعلاه. فالكتب الليتورجية تطلق عليه صفة «بولس آخر» لما

الجمع لأنه كان قصيرَ القامة. يركض إلى الأمام ويصعد على جميّزة لكي يرى يسوع الذي كان مجتازاً من هناك. إن زكّا القصير القامة والكثير المعرفة كان يلتمس أن يرى المسيح. كان يشتهي أن يرى الله فيما بين البشر. أن يرى ذاك الذي وهب السموات، الذي أبدع الملائكة، أن يرى واهبَ النور الفائق السماوي يسير بخطى البشر.

كان يلتمس أن يرى كيف أن شمسَ العدل الجالس على السحاب قد أنار أعين قلب المؤمنين. يلتمس أن يرى يسوع الإله، الجميل المشتهى، الحلو، الذي مجرّد اسمه يشير إلى الفعل. أن يرى الخروف الموشح صوفه بالبرفير الأرجواني الذي بدمه افتدى المسكونة وبصوفه ألبس العراة من جيل آدم حتى النهاية. كان الجندي الحبيس يشتهي أن يرى مَلِكَه، أن يرى الخروفُ راعيه، الضائعُ طريقه، المظلمُ النور. الذي لم يذق بعدُ حلاوة المعرفة الإلهية (أي زكا) يشتهي أن يرى كاروز التقوى. أن يرى المريضُ صحته، الجائعُ غذاءه السماوي، العطشان النبعَ الحامل الحياة. يشتهي أن يرى معطي الحياة للكهنة ومقيم لعازر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

عُرف عنه من نشاط رعائيّ واهتمام بالكنائس كلّها، سواء تلك الواقعة في نطاق أبرشيّته أو تلك المحيطة بها والبعيدة عنها، وذلك سعياً إلى تحقيق السلام بينها ودرء أخطار الآريوسيّة التي كانت تحيق بها. ولقد كرّس باسيليوس المواهب الكثيرة التي منَّ الله عليه بها في سبيل تحقيق هذا الهدف. فراح يكتب الرسائل، الواحدة تلو الأخرى، طمعاً في تقريب وجهات النظر واستمالة المعتدلين من ذوي الانحراف. ولم يتورّع عن تدبيج المقالات اللاهوتية سعياً إلى تحقيق هذه الغاية كمثل كتابه الشهير في الروح القدس الذي يُعتبر، حتى اليوم، مرجعاً بالنسبة إلى التعليم القويم عن الأقنوم الثالث من أقانيم الثالوث. يضاف إلى ذلك أنّ الخلافات اللاهوتية التي انصرف إلى معالجتها لم تحلّ دون وضعه تفاسير في الكتاب المقدّس مثل كتابه في تفسير أيّام الخلق الستّة. والمعروف عن هذا الكتاب أنّ باسيليوس وافته المنيّة قبل أن يتمكّن من إتمامه. فأخذ القديس غريغوريوس النيصصي على عاتقه مهمّة إتمام الشرح تعميماً للفائدة وإكراماً لذكرى أخيه بعد موته. والقديس باسيليوس هو، فضلاً عن كل ما جرى ذكره، واضع بعض النصوص الليتورجية ومُصلح بعضها الآخر بما ينسجم وعقيدة كمال لاهوت الكلمة التي انبرى يدافع عنها. وهو الراهب ومؤسّس الشركات الرهبنيّة وواضع القوانين الرهبنيّة المدعوة باسمه والتي لا تزال أديرة كثيرة، شرقاً وغرباً، تسير في هديها. وهو أيضاً مؤسّس المدن الباسيليّة التي كانت تهتم بالفقراء والمعوزين والمشرّدين والجائعين والمهمّشين، وذلك اقتناعاً منه بأنّ الرعاية لا تزدهر وتستقيم إلاّ بمحبة القريب الضعيف كما دعا إليها يسوع في العظة على الجبل.

لا سبيل، إذاً، للمفاضلة بين الأقمار الثلاثة. فلقد رسموا لنا، منفردين ومجتمعين، طريق التقوى بسيرتهم، ووضعوا مداميك تفسير الكتاب المقدس بشروحهم، وعبّروا عن العقيدة الصحيحة بمصنّفاتهم اللاهوتيّة، وعلّمونا أهميّة السهر على وحدة الكنيسة بمساهمتهم في التغلّب على الهرطقات، وأظهروا لنا معنى الالتزام الاجتماعيّ في الكنيسة عبر سعيهم إلى تقويم الأخلاق وافتقاد المحتاجين. هذه المعاني كلّها تتّضح، بأجلى بيان، في عيد الأقمار الثلاثة، هذا العيد الذي يفصح أيّما إفصاح عن الوحدة بين تفسير الكتاب المقدّس والعقيدة والأخلاق ومحبّة القريب.

دخول السيد إلى الهيكل

في الثاني من شباط تُعيِّد كنيستنا المقدسة لتذكار دخول ربنا يسوع المسيح إلى الهيكل. للمناسبة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الأربعاء ١ شباط ٢٠٠٦ وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الخميس ٢ شباط في كنيسة أبوينا البارين أنطونيوس الكبير وبورفيريوس الرائي في دار المطرانية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb